«الصين».. محطات متعددة تبقى في الذاكرة وسورها العظيم الاستثنائي

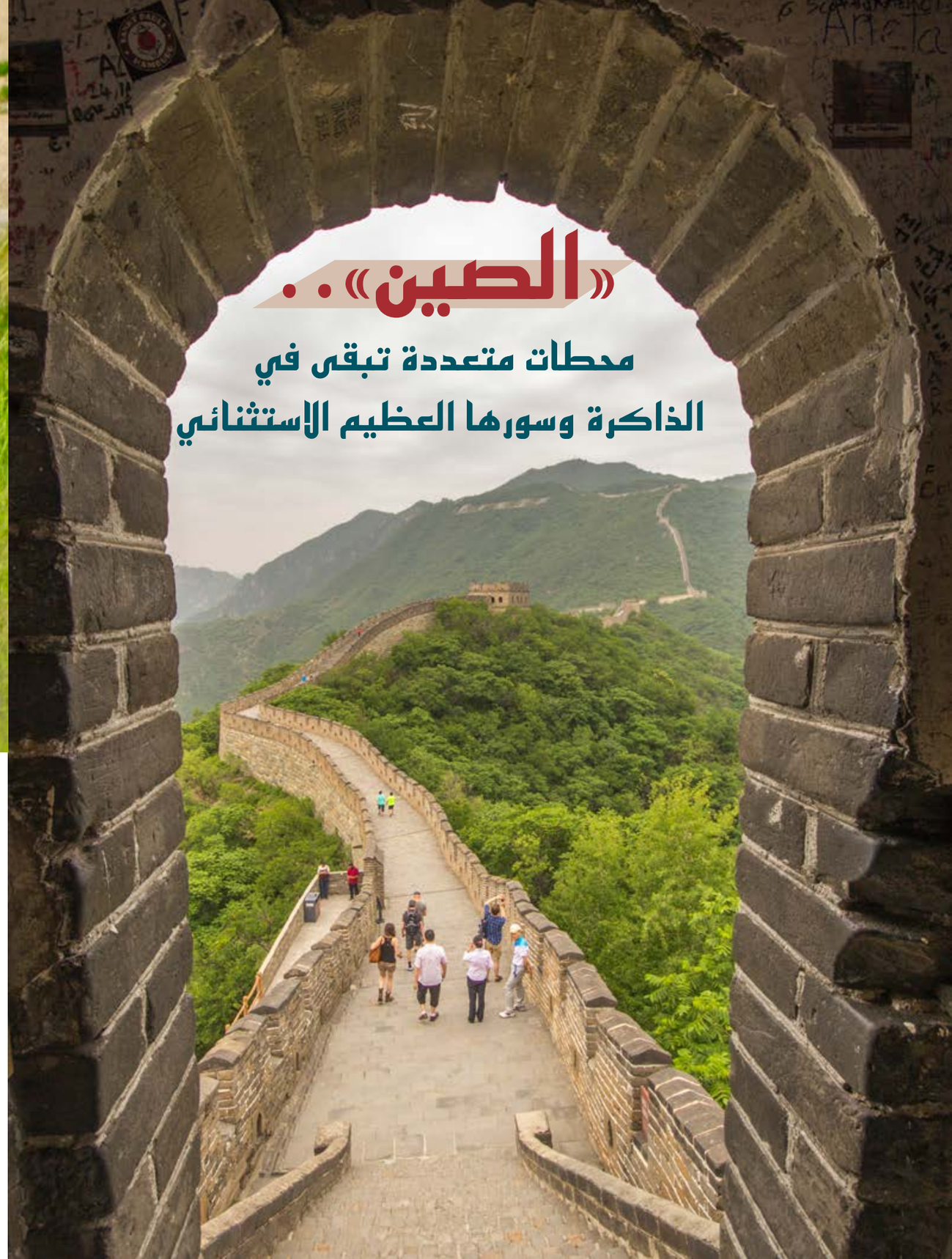

الزيارة الاستثنائية التي حظيت بها برفقة زملائي بالعمل إلى جمهورية الصين الشعبية كانت فرصة سانحة وفرتها وزارة الخارجية الصينية لوفد إعلامي عربي، بهدف التعرف على ملامح الصين التي يعيش بين رقعتها الجغرافية الواسعة حوالي مليار و٤٠٠ مليون نسمة وكسور من مئات الآلاف بطبيعة الحال. هذا الكم الهائل من البشر الذين يخضعون لنظام دولة واحدة يحملون تاريخا عريقا امتد لمئات السنين بينها إنجاز يُعدّ من عجائب الدنيا السبع، سور الصين العظيم.

عامر بن عبدالله الأنصاري

صورة جماعية للوفد مع مسؤول بوزارة الخارجية الصينية

جدول الزيارات

بعد رحلة امتدت قرابة عشر ساعات انطلاقا من مطار مسقط وانتهاء بمطار بيكين، استقبلتنا المترجمة والمرافقة «أمينة»، صينية تتحدث العربية، وغاب عني اسمها الحقيقي الذي ذَكَرَتهُ مرة واحدة طوال الزيارة التي استمرت ستة أيام، ومعها مدير العلاقات الخارجية في جمعية الصحفيين الصينية «مستر رونج».

أَملت «أمينة» على مسامعنا جدول الزيارة لننصدم بازدحامه ورسميته في أحيان عديدة، فاستراحة أول فندق في أول يوم لم تكن إلا لحوالي ساعة واحدة لننطلق بعدها لتناول وجبة الغداء على طاولة مستديرة، يدور كل ما عليها لننال نصيبنا من كل وجبة، وهي نفس الطاولة في كل المطاعم التي زرناها، كما أن وجبات الغداء والعشاء تحمل الطابع الرسمي حيث لا يمكننا تجاوزها مطلقا، ففي كل مرة تكون الوجبة على شرف شخصية معينة.

بدأنا أول يوم بزيارة إلى «المدينة المحرمة» التي أصبحت مزارا سياحيا يقصده كل من يزور الصين، حيث إنها قد بنيت في ١٤ عاما وانتهى بناؤها عام ١٤٢٦ ميلاديا - حسب موقع ويكيبيديا- وترجع التسمية إلى الامبراطور الذي عاش فيها آنذاك، حيث حرم دخولها على الشعب لتكون مقتصرة على الوزراء والحاشية والأسرة!

أنهكنا المسير لعدة كيلومترات بين أروقة المدينة المحرمة، والتقاط الصور الكثيرة والتوقف والتأمل بين كل زاوية وبين آلاف الزوار والسياح، لتضطر المترجمة «أمينة» لاستعجالنا والسير بسرعة للوصول إلى الحافلة التي يجب أن تقلنا إلى مسرح في وقت محدد قبل بداية العرض.

من محمية طائر الكروكي حيث الاعتناء بالصغار

وصلنا، وبدأت مسرحية آسرة بكل ما تحمله الكلمة من معنى، مسرحية يفهمها كل العالم لأنها تخاطب القلوب بلغة صامتة سوى من الصرخات المعبرة، مسرحية امتزجت فنونها بين الأداء التمثيلي المتقن والمهارات القتالية التي لم تخرج من اطار الفنون القتالية الصينية، وبين التقنيات الحديثة، فكل جزء من المسرح كان مستغلا، المسرح وفضاؤه حيث يطير الممثلون المثبتون بحبال خفية، وجوانب المسرح ومقدمة الجمهور وحتى جوف خشبة المسرح.

لم أتمالك نفسي مرارا من التقاط الصور، حتى فكرت بتصوير لقطات فيديو لأنتبه بعدها أن الفيديو ممنوع بينما التصوير الفوتوغرافي مصرح به حفظا لحقوق الفكرة والنص الصامت.

وتدور أحداث المسرحية حول طفل بلغ العمر المقرر للالتحاق بمعسكر التدريب القتالي، وتدور الاحداث بداية من تعلقه بأمه رافضا الذهاب للمعسكر وانتهاء ببطل وطني لا يُقهر، مسرحية استمرت ساعات نام خلالها بعض الزملاء من شدة الارهاق، بينما غفت أعين البقية لدقائق!

علاقات قديمة

في ثاني أيام الزيارة، اجتمع بنا مدير دائرة الاعلام بوزارة الخارجية الصينية بالعاصمة بيكين، حيث كانت زيارة رسمية حتمت علينا جميعا لبس بدلة وربطة عنق وحذاء جلدي، وأشاد خلالها المسؤول بالعلاقات الثنائية بين البلدين التي امتدت لسنوات طويلة ولا زالت ممتدة، وحول التجارة الصينية العمانية أشاد بنموذج السوق الحرة في إمارة دبي التي ساعدت ويسرت كثيرا تبادل التجارة، متمنيا أن تعزز الزيارة العلاقات الاخوية بين البلدين على مختلف الاصعدة.

سألته حينما أتيحت لي الفرصة عن سبب حظر مواقع التواصل الاجتماعي المشهورة مثل «الانستجرام» و «الفيسبوك» و «التويتر» و «السناب شات»، وعلى رأسها محرك البحث العم «جوجل»، فأكد المسؤول أننا سنتمكن من استعمال تلك المواقع خلال الزيارة القادمة!

لا أعتقد أن حظر تلك المواقع له هدف مثالي قد يتصوره البعض، وهو الحد من الإدمان على تلك الوسائل، لأن الصين تمتلك برامج للتواصل الاجتماعي خاصة بها، وتشبه إلى حد كبير تلك التي نستخدمها، فبدلا من «فيس بوك» فهم يستعملون «الوي بوك»، وغيرها العديد، أعتقد أن الهدف منافسة، فالشعب الذي يتجاوز عدد سكانه المليار بمئات الملايين يوازي عدد مستخدمي «الفيس بوك» في كل دول العالم!

تضمن جدول اليوم الثاني زيارات لعدد من المؤسسات الاعلامية العريقة منها شبكة الاخبار الصينية، ووكالة الانباء «شينخوا» وغيرها العديد، تعرفنا خلالها إلى عرب من جمهورية مصر العربية يعملون كخبراء يطلقون عليهم «الخبراء الاجانب»، الوصف الذي استهجنته إلى أن استوعبت أنني في الصين حيث أُعدّ وكل العرب أجانب.

وبعد انتهائنا من سلسلة زيارات، توجهنا إلى مبنى ضخم شيده أمبراطور الصين قبل حوالي ٦٠٠ عام، خصصه لتقديم القرابين، كما كان سائدا حينها، المبنى الذي لا يزال شامخا إلى اليوم مصنوع كله من الخشب القوي، حيث لم يتزعزع المبنى ولم يلزمه سوى بعض الصيانة واغلبها في إعادة الأصباغ.

سور الصين العظيم

كم هو عظيم هذا السور العملاق، عظيم بعظمة الامبراطورية الصينية، بهذه الخيالات تشوقنا إلى رؤية سور الصين، حيث ارتبط ذكر الصين به منذ أن بدأنا نستوعب البلدان، ونحن نسمع عظمة هذا الصرح، بين من يقول إن رواد الفضاء يمكنهم رؤيته، وبين من يقول إن من بناه هم الجان، وبين من يقول اساطير اخرى.

في ثالث أيامنا في بيكين انطلقنا باكرا نحو سور الصين العظيم، وكسبنا نقطة ساحقة على حساب الوفد العربي الذي سبقنا، فقد منعتهم الثلوج والبرد القارص من زيارته، هم وجدوا الثلوج ونحن وصلنا إلى سور الصين العظيم ومشينا عليه لعدة مترات، والافق الطويل لذلك السور يوحي لنا أنه إلى ما لا نهاية!

استغربنا حينما قالت لنا «أمينة» إن سور الصين يبلغ اجمالي طوله ٨٠٠٠ كيلومتر، ولكن كثيرا من اجزاء ذلك السور أصبح معدوما، والجزء الذي صعدنا إليه تارة مشيا وتارة بالتلفريك، استثمرته الحكومة كمزار سياحي، ويا له من منظر رائع أشبع شغفنا وأطفأ شوقنا، ولم يخيب ظننا بعظمته وشموخه!

هاربين!

«هاربين» منطقة في شمال الصين، روعتها استثنائية، ارتبطت بالروس حتى أصبح كثير من معمارها إلى اليوم يحمل الطابع الروسي وحتى التقليدي منه، مدينة تم تصنيفها بأنها مدينة الموسيقى الاولى عالميا لاهتمامها الكبير بالموسيقى لسنوات طويلة ولكون شعبها تلهمهم الموسيقى فيتذوقونها ويعيشون بها حتى أصبحوا جزءا منها.

المنطقة باردة مقارنة بالعاصمة بيكين، وفي فصل الشتاء تنخفض درجات الحرارة إلى ما دون ٢٠ تحت الصفر، فتقام حينها مهرجانات الثلوج والمنحوتات الجليدية إلى جانب انتشار هواية ورياضة التزلج على الجليد، وخصوصا في ذلك النهر الجميل الذي سكنا في فندق بجواره.

ملامح كثيرة بقيت في ذهني، وربما سوق المشاة هو من اروع ملامح «هاربين» فهو سوق

من متحف السلاح الكيماوي

ملامح صينية شامخة

يحتضن علامات تجارية عالمية، وفي كل جزء منه تقام معزوفات لفرق مختلفة من كل أنحاء العالم، فوجدنا المعزوفات الاوروبية، والروسية، والقرغيزية وغيرها الكثير، إلى جانب ملامح كثيرة ليس أقلها ملامح الوجوه عموما، ورقصات الأطفال على أنغام الموسيقى، مشاهد كثيرة وثقتها كاميراتي الأربع وهواتف الزملاء، وحصيلة من الصور تعكس روعة المكان.

فرقة ٧٣١

زيارات كثيرة مزدحمة بالذكريات والصور، وأذكر منها على سبيل المثال لا الحصر، متحف السلاح الكيماوي الذي يسرد بعض الحقائق التاريخية من احتلال اليابانيين لمنطقة «هاربين»، من خلال الفرقة اليابانية ٧٣١ التي أنشئت عام ١٩٣٢ وكانت وحدة أبحاث وتطوير حرب كيميائية سرية في جيش اليابان الإمبراطوري، وأجرت هذه الوحدة تجارب أسلحة بيولوجية على البشر في الحرب اليابانية الصينية الثانية، ونفذت أفظع جرائم الحرب سردها المتحف وصورها من خلال المجسمات

بصورة متقنة عكست بؤس الموقف وحركت مشاعرنا تجاه الضحايا والقتلى.

تطوير هاربين

في مدينة «هاربين» زرنا متحفها الضخم الذي يعكس أثر الانفتاح الروسي الايجابي على المنطقة، فتاريخها الحديث في الثلاثينيات تقريبا كان متأثرا بالبيئة الروسية وبدا ذلك واضحا من خلال اللباس والعمران والازقة والشوارع وفي كل الاجزاء، كما أن المتحف يضم مجسما ضخما باتساع ملعب كرة السلة أو ربما أكبر لكل مدينة هاربين بشوارعها ومبانيها ومسطحاتها المائية، المجسم مجهز بالعديد من وسائل العرض المتقنة حيث تسهل عملية الشرح.

وزرنا متحف المنحوتات الثلجية، ومتحفا آخر مخصصًا لرمز من رموز الصين كان عاملا في مجال استخراج النفط، كانت لنا وقفات عديدة بكل تلك المتاحف بين انبهار واعجاب لروعة الاشياء التي رأيناها وسمعنا عنها، وثقوها لتبقى خالدة للعصور القادمة، فالصين التي تغزو العالم اليوم بالتكنولوجيا، لا تنسى أبدا أنها تحمل تاريخا عريقا وحضارة يجب أن تُخلد للأجيال القادمة.

طائر الكروكي

كان لنا نصيب من استعمال القطار الكهربائي السريع الذي تبلغ أقصى سرعة له ٦٠٠ كيلومتر في الساعة، حيث انتقلنا إلى منطقة اخرى بهذا القطار من هاربين وإلى «تشي تشي هار» وهي منطقة ذات اصول مغولية، لم تستغرق محطتنا في هذه المنطقة سوى يوم واحد، استمتعنا في المبيت بمنتجع رائع تتوفر به أحواض سباحة خاصة داخلية وخارجية بالهواء الطلق.

وتخللت تلك الزيارة رحلة إلى محمية طائر الكروكي، وهو طائر أسطوري يرمز إلى عدة دلالات، منها العمر الطويل، حيث يعيش هذا الطائر بنشاط متواصل لعمر متوسط يبلغ ٨٧ عاما، كما أنه رمز للحب الطويل، اقتربنا من هذا الطائر لعدة سنتيمترات، فهو طائر عملاق ودود معتاد على الناس.

انتهت رحلتنا إلى الصين ولم تنته سلسلة الذكريات، تجرنا الأحاديث اليومية لذكر موقف من مواقف الزيارة، الهدايا الكثيرة والمشتريات.. تلك هي الصين التي لا تُوفها ما ذكرت، ولا ما رأيت، فلم نزر سوى ثلاثة أماكن، وما زالت المئات من الاماكن تخبئ الكثير من المفاجآت!

المبنى الذي شيده أمبراطور الصين قبل ٦٠٠ عام لتقديم القرابين

من مراعي الصين